

الوحوش بجماهورت بلدنا

قصة بقلم الدكتور شاكر خضباله

.. خمسة عشر من الممتاز .. آزييف ! .

وكان (معهى فتاح) موطن التحديث الرصين الهادئ ، ففيه يستعرض أبناء بلدنا من العوام مشاكل عمهم آيومية . ولم يكن العوام يكسبون قوتهم ببسر ، لكنهم كانوا يشكرون الله على نعمه . وكانوا قد ندووا بالسعادة مذ زالت عنهم سطوة الاعيان واضحووا يكسبون قوتهم بحرية واطمئنان . وكان يسودهم الاعتقاد انهم اصبحوا افراد أسرة واحدة ، وان بلدنا الوداعة اتسعده نسط عليهم جميعا جاحيها الحنونين .

وفي ارجاء (فهوة الشمس) كانت ترتفع صيحات الشبان وهم يتجادلون في السياسة . وكانوا يتسابقون في التعبير عن اخلصهم للعوام ، ويتبارون في استعدادهم للدفاع عنهم الى اخر رمق . لكن صياحهم ما يلبث ان يخفت ويتحول الى همس حينما يتناقلون انباء الفرام . كانوا يتساءلون فيما اذا كانت ليلى قد ردت على بسمه محمودة ، وفيما اذا كانت هناء قد بادلت خليل النظرات ، وفيما اذا كانت زهراء تحب سالم حقا !

كان ذلك قبل ان يجتاح الوحوش بلدنا . وكان الوحوش يهددون بلدنا بالويل منذ رفع العوام رؤوسهم وتخلصوا من سطوة الاعيان . وكنا نهقهه عاليا كلما سمعنا نهديهم ، فقد كنا واثقين اننا سنسحقهم سحقا لو تجرأوا على افتتاح بلدنا ! كان كل منا يؤكد للاخر بانهم لن يفلحوا في اخضاع بلدنا الا على آسلاء جسده !

وفي ذات صباح دون شوارع بلدنا بتزين الرصاص ، وارتفع الصخب الى عنان السماء . فتاصمت القلوب ووجمت اوجوه وترددت بيننا همهمات فزعة : « لقد افتحم الوحوش بلدنا ! » .

وخرج الى الشوارع نفر قليل لمجابهة الوحوش فسقطوا ضرعى برصاصهم ، وسرعان ما لاذ الجميع ببيوتهم واغلقوا ابوابها واخلوها البلدة للوحوش ، وهرع الاعيان الى الشوارع برقصون قربا وراحوا يعانقون الوحوش ويشدون على ايديهم فرحين مستبشرين . لكن رصاص الوحوش اطنش ما لبث ان رد الاعيان الى بيوتهم خائفين وجلبين !

وران على بلدنا صمت كئيب ، فسكنت ازقتها من صخب الصغار الالهي ، واقفر شارعها الرئيسي من الفتيات والفتيان المتزهين ، وختل مفاهيمها من الرجال والشبان المرحين . واثبت الوحوش فسي ارجاء بلدنا واحتلوا رؤوس الازفة ونواصي الشوارع وقلوب الميادين . وكانوا يتكبون رشاشاتهم ويسددونها الى صدورنا .

وقال ابناء بلدنا لبعضهم البعض : « ما لنا والوحوش ؟! سنكون في مأمن ان لم نتعرض لهم بشر » . وفصدوا في اليوم التالي اسواقهم ودوائرهم ومدارسهم وهم يتظاهرون كأن شيئا لم يحدث وكان الوحوش لم يقهروا البلدة ! وكان يمكن ان يحسب ابناء بلدنا ان الوحوش ليسوا وحوشا بعد كل شيء او لم يقع ذلك لتحادث لجاسم الحمزاوي . فقد كان جاسم يسير مسرعا وهو مطرق الرأس كعادته فاصدا دكانه ، وكان ابوه يتبعه في خطوات وانية . وفجأة صرخ أحد الوحوش أمرا : « فف » ، لكن جاسم الحمزاوي لم يقف ، فلم يكن من عادته ان يتوقف اثناء سيره ، ولم يكن له شأن بأحد . فانهمر عليه سيل من الرصاص وخر صريعا يتخبط في دمه . وركض أبوه نحوه يصرخ جرحا : « ولدي بريء .. ولدي بريء يا ناس » . وبلوى جاسم بين يدي أبيه كالطير

كانت بلدنا (X) وادعة سعيدة وكان حبيها يملا فلوبنا . وكثيرا ما هتفنا ونحن نخنق شارعها الرئيسي المظلل بأشجار الصفصاف : « ما اجمل بلدتنا ! ما ابداع نهرنا ! » فالنهر يقدم من اعلى اتجبال غاضبا هادرا ، وما أن يدخل بلدنا حتى ينساب بهدوء وكأنه يستلقي على صدر ام رؤوم !

وكانت بلدنا تبدو في ابداع اوفاتها قبيل الغروب . فحينما توشك الشمس على الغيب وتصطبغ رؤوس التخييل بلون ذهبي تنطلق اسراب الفتيات في الشارع الرئيسي يتهادين بوجوه مشرقة وبسمات خفة وعباءات سود . وكانت تلك الساعة هي الوحيدة التي تكنحل فيها عيوننا بمرآهن ، فكان الشارع يزدحم بنا - نحن الشبان - متزهين جماعات جماعات ، الا ناجي الضالحي الذي كن يرى وحيدا دائما . وكنا نسرق من فتياتنا نظرات خاطفة هي كل زادنا في الحب . ففتيات بلدنا محاضبات وهن ياببن ان نتجاوز في حيننا النظرات الخاطفة . وكن يتبادلن الهمس كما تلافت عيوننا بعيونهن ، ولم تكن نسمع تلك الهمسات لكننا كنا نظرب لها ، فقد كنا ندرك انها تدور حولنا .

وحين يرتفع اذان الغروب ويتردد صدها في ارجاء البلدة تفيض الطرافات والازفة بسيل انصبيان الصفار وهم يتراخضون عائدن الى بيوتهم - وكانت جماعاتهم قد فرغت من لهوها والعابها المتنوعة وناقت الى النساء . وكان اطفال (الصكد القديم) يلعبون (ظفيرك يسا فمر) دائما ، بينما يفضل صبيان (الدرب الاحمر) (الدعبيل) و (الجباب) و (الكلكلي) . اما اولاد (الشارع الجديد) فيتبارون في كرة القدم كل يوم !

ونقطع احاديث النساء اللواتي يتحلفن امام منازلهن كل عصر ويرددن الاذان باصوات خفيضة . وكن قد يحدثن في كل شيء .. في اسعار الخضار ، وختان ابن الملا عبود ، والدجاج الذي لا يببيض ، والفرزول القليلة النمن .. بل وحتى عن اسباب امتناعي عن الزواج بالرغم من اني امسيت شابا مئتمل النضوج . وينهضن وهن يحملن مغازلهن وبنادين اطفالهن ويتبادلن نحيات الوداع ويدخلن مساكنهن . لكن اتحاجة ام مهدي كانت تظل واقفة عند الباب حينما تلمحني مقبلا من بعيد ، وتبغني بانظارها الحجة حتى باب الدار ، وتهتف بجرارة : « محروس بسور سليمان » ، ثم تدخل وترد وراءها الباب . فام مهدي صديقة لجدتي ، وكثيرا ما اجلسنتني في حضنها وانا طفل فتبولت فيه واضطرت للذهاب الى النهر لتطهر ثوبها قبل الصلاة !

وعند انشمار الظلام بصمت اسواق بلدنا وتطلق حوانيتها وندب الحياة في مفاهيمها . ونكتظ المقاهي على ضفتي النهر والشارع الرئيسي بابناء بلدنا ونعالى القهقهات المججلة مطرقة الرد والدومينو ، ويهدر صخب النقاش اتحاد . وكان منجي الشمر يتصدر المقعد الطويل دائما امام باب (معهى شلتاخ) يحيط به جماعته الذين لا يهدأ ضجيجهم . كانوا يتكبون جميعا على طاولة (الدومينو) وقد شمرنا عن اكمامهم وكانهم يتاهبون للانقضاض على بعضهم في اية لحظة . وكان صوت منجي الجهوري يطلع بين آونة وأخرى وهو يهتف : (عشرة من الزين

(X) من مجموعة قصصياتية معدة للطبع بعنوان (الجبناء والوحوش) .

المدبوح ثم اسلم الروح . فحمله ابوه على ذراعيه وطاف به شوارع البلدة وهو يردد باكياً : « ولدي بريء يا ناس .. ولدي بريء يا ناس » واعترض طريقه الوحوش اخيراً وهتف به أمرهم : « كفى نواحا والا فنتك . لماذا اسرع ولدك في سيره حينما أمر بالتوقف ؟! سينال كل من تحدته نفسه بالهرب نفس المصير » .

وقال أبناء بلدنا لبعضهم البعض : « الوحوش لا يحبون السير السريع . وستنجب اذاهم اذا امتثلنا لرغبتهم » . وعند الفد اخذ ابناء بلدنا يمشمون الهونا في التناور والاسواق والميادين . كان في الحق مشهداً مضحكاً تكنا ففدنا انقدرة على الضحك . فقد بدا كان ابناء بلدنا يتسكعون ، بينما كانوا ماضين لانجاز اعمال تتطلب الاستعجال . غير ان اوحوش غضبوا لهذا انتصرف ولم يرق لهم سيرنا البطيء . وجعلوا يصرخون في وجوهنا : « لماذا لا تسرعون في سيركم ايها الجبناء ؟! » وانهلوا على البعض منا ضرباً باعقاب الرشاشات ليسرعوا في سيرهم . لكن احداً منا لم يجرؤ على الاسراع خشية ان يكون ذلك مكيدة لقتله !

وادرك ابناء بلدنا بعد حين ان الوحوش وحوش وانهم لن يسلموا من اذاهم وان دنوا لهم بالطاعة . فقد طافت ذات صباح السيارات في شوارع البلدة وهي تحمل مكبرات اصوت ، واعلن الوحوش انهم اكتشفوا مؤامرة ضددهم تفنمي اغتال المشتبه بهم في البيت فوق التل . وكان الوحوش قد اتخذوا البيت فوق التل القاتم في طرف البلدة مقراً لهم . وكان ذلك البيت مسكناً لحارس التل . وكان يستشير خيالنا ونحن صفار نلعب في حديقة التل الفسيحة ، كانت اشجاره مكتظة ابداً بأنواع من اطيور والمصافير تثير العجب بالوانها الزاهية وزقزقتها البديعة . وكنا نتخيل ان في وسع سكان البيت ان يمدوا ايديهم من النوافذ ويقبضوا على اي عدد يشاؤون من اطيور . ولم يكن هذا البيت يستشير خيال الصغار فحسب ، بل كان يستحود على اعجاب الكبار من ابناء بلدنا ايضاً ، كانوا يتطلعون اليه من اسفل التل بشغف وهو منتصب فوق القمة بنسط جناحيه الابيضين ، تسوره اشجار الكاليتوز بجذوعها الضخمة ، وتحنو عليه باغصانها الفينانة . وكان الحارس يحب بيته ويفخر به ، وكان يدعو ابناء بلدنا على الدوام لزيارته . كنا جميعاً نحب الحارس الطيب ونعجب ببيته اتجهيل ، تكن ذلك البيت اصبح مزار زعبنا منذ اخذ الوحوش مقراً . ولم يعد اي واحد منا يفكر بالدنو منه .

ومنذ اكتمح الوحوش بلدنا كان البنائون يتسلقون التل كل صباح وينهمكون في عمل متواصل . ولم تمض اسابيع حتى ارتفع بناء فيج ذو جدران سود ونوافذ حديدية ملاصقا للبيت اتجهيل . وكرهنا البناء الجديد . كانت نوافذه الضيقة العالية كأنها احداق شيطانية تتفرس من اعلى التل في وجوهنا . وكانت ابوابه السود الضخمة المرصعة بدبابيس برونزية كأنها اشداق هائلة تنفرج عن انياب حادة لتمزق اجسادنا . وقال البنائون انهم حفروا في البيت الجديد سرايب عميقة تغرها المياه حتى اتركب ، ودفوا في الجدران مسامير ضخمة ، وثبتوا في اسقف كلاب تدلى منها حبال غليظة !

وبدا ابناء بلدنا يخفون في البيت فوق اتل واحدا بعد الاخر . ولم تكن ندرى ماذا يجري في اعماق البيت ، فقد كان الداخلون لا يخرجون . وكان الوحوش يروحون ويجيئون امامه في ضجة وضوضاء وهم يتنكبون الرشاشات . وكانت رشاشاتهم مسددة ابداً الى صدورنا . وتطارت الهمسات المرعبة عن البيت ، وانتقلت من واحد الى اخر . ثم دق نافوس الانذار عما يجري في البيت فوق التل حينما ذاعت في البلدة قصة خضير بن عباس الخباز . وكان الوحوش قد اعتلوا خضير في البيت فوق التل ولم نفلح توسلات ابيه في انقاذه . وقيل ان عباس الخباز كان يرباط طول النهار امام مقر الوحوش حتى ضاقوا به ذرعاً . وذات ليلة استيقظ ابناء بلدنا على صراخ مدو ينبعث من منزل عباس الخباز . وهرعوا اليه فزعين فاذا بعباس الخباز يحتضن جثة ولده خضير وهو يطلق صرخاته المحومة .

واحتار ابناء بلدنا فيما اذا كان عباس الخباز قد فقد عقله ام انه لم يعد يهاب الوحوش . فقد راح يدور عليهم فرداً فرداً ويسروي لهم بصوت مرتفع ما جرى لولده خضير في البيت فوق التل . كان يعسمهم بان ظهر خضير كان مخططاً بخطوط زرقاء داكنة وان صدره كان مليئاً بالنجروح العميمة . كان يؤكد لهم بان انار الحبال تطوق معصميه ورجليه . كان يحلف لهم بان احدى اذنيه مقطوعة وان احدى عينيه مفقودة . وكان يصرخ بهم بعد ان يمن روايته : « هل تفهمون ماذا يجري في البيت فوق التل ؟! انهم يعدون ابناءنا حتى الموت ! » وكان الواحد من ابناء بلدنا يتلفت حواليه وجلا ويهمس لعباس الخباز : « ارجوك يا ابا خضير .. لا ترفع صوتك تلاً يسمعك الوحوش » .

لكن عباس الخباز كان يستخدم غضباً ويعلو صوته وهو يهدر : « انتم لا تفهمون الامر ! انهم يعدون ابناءكم حتى الموت ! افلا يهمكم ذلك ؟! » . غير ان ابناء بلدنا كانوا يزدادون خوفاً . واخذوا يفرون من عباس الخباز كما لا يح لهم من بعيد تلاً يروي لهم ما جرى لولده خضير في البيت فوق التل . وقال بعضهم لبعض : « ان عباس الخباز فقد عقله ! » لكن البعض الاخر قال : « ان عباس الخباز لم يفقد عقله ، بل نحن الذين فقدنا كرامتنا » .

وادرك عباس الخباز ان ابناء بلدنا لا يرغبون في الاستماع الى روايته ، فنولى عنهم ولم يعد يتحدث الى احد ، وكان يمضي النهار باكملة وهو يقطع شوارع البلدة طويلاً وعرضاً . كان يسير وهو حاسر الرأس حافي القدمين يتجلبب بقميص واسع مفنوح الصدر بالرغم من ان الشتاء كان فارس انبرد . وكان شعر رأسه الاشيب مشعثاً وشعر لحيته مرسل . ولم يكن يكف عن الكلام . كان يروي لنفسه بصوت مرتفع ما جرى لولده خضير في البيت فوق التل . وكان ابناء بلدنا ينظرون اليه والاسى يمزق فلوبهم ، تكنهم لم يفعلوا شيئاً . وكان بعضهم يهز رأسه ويقول في اسف : « ان عباس الخباز فقد عقله » . وكان البعض الاخر يهمهم في خجل : « ان عباس الخباز ارجع عقلاً منا » .

وافاق ابناء بلدنا ذات صباح فلم يجدوا لعباس الخباز اثراً . وتساءلوا عنه في فلق فلم يحظوا بجواب . وقال بعضهم : « ان الوحوش ضاقوا ذرعاً بعباس الخباز فالفوا به في النهر » . وقال البعض الاخر : « ان عباس الخباز قد هجر هذه البلدة المهانة » . وكان عباس الخباز على اية حال نافوس الانذار الذي دق ليعيان لابناء بلدنا ما يجري في البيت فوق التل .

الدكتور شاكر خصباك

مواقف

سلسلة دراسات رائعة بقلم :

جان بول سارتر

في ست حلقات صدرت كلها

- | | |
|---------|---------------------|
| ٥٠٠ ق.ل | ١ - الادب المتترم |
| ٤٠٠ ق.ل | ٢ - ادباء معاصرون |
| ٤٠٠ ق.ل | ٣ - جمهورية الصمت |
| ٤٠٠ ق.ل | ٤ - قضايا الماركسية |
| ٤٠٠ ق.ل | ٥ - المادية والثورة |
| ٣٥٠ ق.ل | ٦ - شبح سنتالين |

منشورات دار الآداب